مجَلةُ كليَّةِ الآدَاب

مجلة علمية محكمة نصف سنوية تصدر عن
كلية الآداب بجامعة مصراتة

تنشر البحوث والدراسات العلمية في
العلوم الإسلامية والإنسانية

العدد الثاني: ربيع الأول / 1436 هـ- ديسمبر / 2014م

الدرس اللغوي التطبيقي في التراث العربي: ابن الأجدابي نموذجا

أ.د. محمد المحمد بن طاهر

جامعة مصراتة

ملخص

يعد الدرس اللغوي التطبيقي من بين أهم مجالات الدرس اللغوي العام، وهو في أساسه دراسة علمية تختص بما يتعلق باكتساب اللغة وتعلمها وتعليمها، واستعمالاتها، وعلى الرغم من أن هذا العلم –في أساسه– علم لغوي فإن العلاقة الراسخة بين معطياته والهدف من دراسته تتصل اتصالا مباشرا بكل ما للغة دخل فيه؛ لهذا كان تقاطع العديد من العلوم، مع هذا العلم أمرا طبيعيا. ومن بين العلوم المهمة التي لها اتصال مباشر بمكونات علم اللغة التطبيقي "الصناعة المعجمية" بمختلف أنواعها، و"السياسة اللُّغوية"، و"علم النفس"، و"علم الاجتماع"، و"الجغرافيا"، و"التخطيط اللغوي"، ومختلف علوم التربية ... .

ومن ضمن ما يهتم به هذا العلم –أيضا–: تطوير مواد الدراسات اللغوية، بخاصة ما يتعلق بدرس قواعد اللغة في عمومها، وكذلك يهتم بتتبع المشكلات التي تعترض متعلم اللغة، والعمل على وضع الحلول الناجعة، مستفيدا من أن هذا العلم –في أساسه– مبني على الاستفادة من معطيات الدرس اللغوي العام، ومن تجارب الآخرين مع لغاتهم.

إلى جانب ما تقدم، فإن درس علم اللغة التطبيقي يهتم اهتماما خاصا بقضايا الترجمة على مختلف أنواعها، وفوق ذلك كله، فعلم اللغة التطبيقي ليس تطبيقا للغة فحسب، وإنما تواصل بين مختلف العلوم ذات العلاقة اللصيقة باللغة في مجالاتها التطبيقية.

1. المقدمة:

أفادت الدراسات التاريخية المتعاقبة اهتمام جميع الأمم بالدرس اللغوي –بعامة–، وبما يتعلق بلغاتها –بخاصة–، وما اختلاف العلماء في نشأة اللغة إلاّ خير دليل على تلك العناية،

وثبت أنَّ الجراحين المصريين كانوا على درجة عظيمة من الاهتمام والإجابة عن أسئلة طبية، فقد وجد مكتوباً على أوراق البردي ومحدداً بتاريخ "1700ق.م" ما يفيد وصفاً لحالة عجز لغوي، جراء إصابة مباشرة للدماغ.

وكذلك ناقش فلاسفة اليونان شأن اللغة، وتخاصموا في نشأتها، فأفلاطون فيما كتب بين "427 و348ق.م" خصص جزءا من حواره للدرس اللغوي، للفترة الزمنية التي كان يعيشها، وأرسطاطاليس كان مهتماً باللغة من جانبها البياني، إلى جانب اهتمامه ببعدها الفلسفي.

والدرس اللغوي لم يكن مقصوراً على المصريين، أو اليونان، فقد درست جميع الأمم لغاتها، واهتمت بتراثها، فالهنود درسوا لغتهم، وأكدوا قواعدها، وكذلك فعل الرومان، الذين ناقشوا أهمية الدرس الصوتي، ونظام الجمل وتركيبها، واستمر الحال على المنوال نفسه، حتى ظهور بوادر النهضة الحديثة في أوروبا.

والعرب المسلمون لم يكونوا بدعاً من غيرهم، فقد حرصوا على خدمة اللغة التي اختصها الله بأن تكون لغة كتابه المنزل على خير خلقه، فمنذ أن نزل القرآن الكريم وآمن الجمع الغفير من العرب وغيرهم، توالت اهتمامات المسلمين عربا وعجما بلغة الذكر الحكيم، وتفانوا في خدمتها، رغبةً في تعلمها وتعليمها، وحفاظاً على النصّ المقدّس من أن يعتريَهُ اللَّحن، ويُصدَح به على غير وجهه الصحيح؛ ومن هنا كان اهتمام المسلمين –على السواء– بأمر اللغة العربية، ووجوب حفظها والذَّود عن حياضها، فكان لهم ما أرادوا. وقد استطاعت اللغة العربية ((بفعل الإسلام أن تتوحَّد وتمتدَّ من المحيط الأطلسي غرباً، إلى الخليج العربي وحدود إيران شرقاً، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى خط الاستواء والسودان جنوباً))[1].

1– الأساس في فقه اللغة العربية وأرومتها، هادي نهر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان – الأردن، 2002م، ص 60.

والعرب كانوا شديدي الاعتزاز بلغتهم، حريصين كلَّ الحرص على تقديرها ووضعها في أكرم منزلة وأحسن صورة، يتجلى هذا الحرص والاعتزاز في عنايتهم بجودة الإلقاء وحسن الحديث، وفي نفورهم من كل عيب يشوب النطق، أو يشوِّه التعبير.

وفيما يتعلق بالنظام العام للدرس اللغوي العربي فقد تأطَّر صوتياً، ومعجمياً، وصرفياً، ونحوياً، ودلالياً.

ومن بين ما حظي باهتمام خاص من قبل علماء اللغة العربية، الدرسُ المعجمي، على الرغم مما يمثله من مواصفات خاصة في صانعه، وما يتطلَّبه كذلك من صبر ودقة متناهيين؛ ولذا يقول (Gleason): ((إنَّ عمل المعاجم عملٌ مضجرٌ إلى أقصى حدّ، إنَّه الدقّة. إنَّه عبءٌ عظيمٌ لا يمكن تصديقه))[1].

والاهتمام باللغة العربية، أمرٌ استدعته ضرورات قائمة، ذلك أنَّ اللغة –عموماً– تعدُّ عنصراً مهمًّا في بناء الفرد والمجتمع، واللغة العربية –إلى جانب أنَّها لغة الدستور الإلهي للمسلمين– هي عنوان الهوى والهوية للعرب جميعاً؛ ولهذا اهتم ولاة أمر المسلمين بداية نهضتهم بالدرس اللغوي، وحرصوا على أن تكون اللغة العربية لغةَ الدين والدولة، واستمروا ينسجون على هذا المنوال؛ وتحقَّق لهم ما أملوا، فكتبت الكتب، وألفت المؤلفات، ودونت الدواوين، ونال التقييد كل علم، ولم يكتف العلماء المسلمون بنوع معين من أفانين العلوم؛ بل ضربوا بسهم وافر في كل علم، حتى أصبحت عواصم بلادهم منارات هدى.

وبخصوص الدرس اللغوي التطبيقي فإنه يهتم أساسا بتعلم اللغة وتعليمها، والبحث في مجالاتها التطبيقية، وهو ما لم يحظ بمزيد اهتمام من قبل الباحثين العرب المعاصرين ((كما لم يوفوه حقه من البحث والدراسة. على الرغم من أن هذا العلم ضارب الجذور عند العرب منذ أيام الخليل بن أحمد رحمه الله، وسيبويه، والكسائي، والجاحظ، وغيرهم))[2]. ويعد ابن

1– البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرةن 1988م، ص161.

2– علم اللغة التطبيقي في التراث العربي، الجاحظ نموذجا، جاسم على جاسم، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: 40، ع: 2، 2013م، ص295.

الأجدابي "ت 470هـ" من بين العلماء العرب الرواد في هذا الميدان. وهو –وإن لم يصل إلينا من كتاباته المتنوعة إلا السفر قيد الدرس– فإن ما حواه بين دفتيه كفيل بأن يضع النقاط على الحروف، ويدلل على أن هذا العلم كان من بين أولويات الدرس اللغوي التراثي، وأن علماء أجلاء أناروا دروبه، ومهدوا سبله، قبل أن ينتبه إليه علماء الغرب، وهو –وإن لم يؤطر تأطيرا علميا ممنهجا– فإن بداياته كانت عربية بامتياز.

2. أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الموضوع من أهمية اللغة، الوسيلة والأداة في إيصال المعلومة، وبتعبير (Wagner) الذي يرى ((أنَّ مفهوم الخلق في عملية الإبداع الإنشائي مرتبطٌ بقدرة الإنسان على تخليص الكم من القيود التي يكبلها الاستعمال، وتطهيرها ممَّا تراكم عليها من ضبابية الممارسة، فالإبداع إحياء للكلمة بعد نضوبها، وفي إحياء الكلمة بعث جديد للتجربة المعاشة في الذات والزمن))[1].

وفي هذا العمل، التزمت الحديث عن ابن الأجدابي "ت 470هـ" في كتابه "كفاية المتحفظ في اللغة"، ويقيني أن ابن الأجدابي كان مدركاً للدور الريادي للكلمة، وأنَّ هناك حاجة إلى مثل ما قام به من عمل، إيماناً مني أنَّ الإدراك التام لدلالة اللفظ في هذه اللغة، يعين على الوعي الكامل لأهميته، والفهم الدقيق لقواعدها يعزز قدرة الدارس، ويوقظ الحس الإبداعي لديه.

ويمكن القول: ((إنَّ علماء اللغة هم جنُّ الإنس، وهم من يدرك خفايا الأمور، ومن يطلع على المخبإ من كنوز المعرفة، ومن يستطيع تصريف القول، وفهم ما انغلق من النصوص، ولما للكلمة من دور بارز في تسمية الأشياء بمسمياتها، وفي التأثير الحاضر والفاعل في جميع مناحي الحياة، فإنَّ الحديث عمَّا يعتور مسيرتها يعد حجر الزاوية، وما يجب أن يوليه أهل الدراية اهتمامهم))[2].

1– الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، ص113.

2– ظاهرة اللفظية في اللغة العربية، محمد بن طاهر، المؤتمر الثاني للترجمة عبر الثقافات، أكاديمية الدراسات العليا، بنغازي – ليبيا، 2006م، ص5.

وأساطين علماء العربية، وجهابذتها أدركوا بوعي أهمية الكلمة، وتخصيص دلالتها، فهذا عبد القاهر الجرجاني، يوجب أن يكون لكل علم مصطلحاته التي بها يعرف، ويماز عن غيره. يقول: ((لم يكن الناس يرضون من أنفسهم في شيء من العلوم أن يلموا بقواعده ويتدارسوا مادته إلا بعد أن يقفوا على ألفاظه وعباراته، فيعرفوا بها حدودها وما يميزها عن مجانسها أو رديفها))[1].

3. الهدف:

الهدف المبتغى من وراء عرض كتاب ابن الأجدابي "كفاية المتحفظ في اللغة" هو: عدُّ ما احتواه هذا الكتاب عملاً علمياً، يقع في إطار ما يسمَّى حديثاً "علم اللغة التطبيقي"، وتحديداً فيما يسمى: "معجمية المعاني أو الموضوعات"، وكذلك إبراز أهمية هذا الكتاب، وتأكيد أهليته في أنَّه معجم لغوي.

ومن بين ما تهدف إليه هذه الدراسة، تحقيق أنَّ كتاب "كفاية المتحفظ في اللغة" – وإن كتب وأُلِّف قبل ما تجاوز "تسعة قرون"– فإنه كتاب احتوى مادة علمية، لا تزال معيناً ثرا، يرجع إليه من حين إلى آخر في سهولة ويسر؛ وذلك راجع إلى حسن اختيار المادة العلمية، وإلى المنهجية التي اقتفاها المؤلف فيما كتب.

ولما كانت اللغة تعدُّ من بين أقوى الروابط ((ليس بين أعضاء مجتمع واحد بعينه، وإنما هي عامل مهم للترابط بين جيل وجيل، وانتقال الثقافات عبر العصور لا يتأتى إلاَّ بهذه الوسيلة))[2]، فقد ارتأيت عرض كتاب ابن الأجدابي: "كفاية المتحفظ في اللغة" وتناوله على ما يتناسب وقيمة محتواه من مادة علمية، هي في مجملها أقرب إلى الدرس اللغوي التطبيقي بعامة، وإلى الدرس المعجمي –بخاصة– من غيرهما.

1– دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود شاكر، ط: 3، مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع القاهرة، 1992م، ص296.

2– التطور اللغوي التاريخي، إبراهيم السامرائي، دار الأندلس، بيروت، 1981م. ص145.

4. دواعي العمل:

لعلَّ الدواعي التي كانت وراء تأليف مثل هذا الكتاب وما على شاكلته بادئ الأمر، هي نفسها وراء ما دعاني إلى الكتابة عنه، وتبيان بعض ما فيه، فالتاريخ –بالطبع– لا يعيد نفسه، لكنَّ الأحداث تتشابه.

وما يعانيه الوسط اللغوي من ضعف في الملكة اللسانية، وما نشأ وينشأ عن الجهل بقراءة القرآن والحديث، وما نراه من تهميش متعمَّد لدور اللغة العربية في بناء الشخصية المسلمة والوطنية، وما يرزأ تحته الدرس اللغوي العربي –بعامة– والدرس النحوي –بخاصة– من سوء عرض، ولفظية مربكة ومقلقة، كل هذه الأمور وغيرها تدعو إلى إعادة قراءة التاريخ اللغوي قراءة متأنية، وتأكيد أنَّ هذا الأمر لن يصلح آخره إلاَّ بما صلح به أوَّلُه.

وابن الأجدابي سار على نهج علماء اللغة السابقين، الذين كتبوا الرسائل اللغوية، خدمة للقرآن الكريم وللحديث الشريف، وقد نبهوا بدورهم إلى أهمية تلك الرسائل اللغوية المختلفة.

5. إبراهيم بن الأجدابي:

ولد المحقِّق اللغوي "إبراهيم بن الأجدابي الطرابلسي" في مدينة "طرابلس" إحدى منارات العالم الإسلامي، التي كان يؤمُّها البادي والغادي، وينيخ بها الحادي، ويتزوّد من معينها القاصي والداني، ويستظل بفيئها حجّاج بيت الله الحرام.

وابن الأجدابي –على حد ما ذكر في إحدى نسخ "كتاب كفاية المتحفظ في اللغة" المحققّة– غيرُ معلومٍ تاريخُ ولادته، وكذلك تاريخ الوفاة، وقد جاء أنه ولد ومات في الفترة بين

"444هـ" و477هـ" ((بطرابلس الغرب، ولم يفارقها طيلة حياته))[1]، غير أنَّه ورد أن وفاته كانت سنة "470هـ"[2].

وفي هذا الصددّ لم يبيّن كل من كتب عن ابن الأجدابي، السبب وراء تشبُّثه بالبقاء في طرابلس، علماً بأنَّ الرحلة في طلب العلم كانت –ولا تزال– مما يفاخر به العلماء، ويذكرونه في ثنايا أعمالهم العلمية، وأكاد أجزم أن أساطين علماء الإسلام –وعلى مرِّ الأيام والسنين– لم يغفلوا هذا الجانب الذي كانوا يرونه مهماً في اكتساب التجربة، وفي تنوّع المعلومة، والأمثلة على ذلك لا تُحصى، ولا تَختصُّ بجانبٍ دون آخر، فرحلة علماء اللغة في طلب الأوابد من الألفاظ، والحرص على تسجيلها وتسديدها غير خافٍ، وسفر علماء الحديث، واجتيابهم القفار وصولاً إلى حيث المراد لا ينكره عالم، ولو أردت دعم الرأي بما ورد لما أغناني عديد الأسفار.

ولعل السبب وراء بقاء ابن الأجدابي بطرابلس وعدم مغادرتها راجعٌ إلى اكتفائه بما تحصل عليه من علم، وما اكتسبه من تجربة، عن طريق اللقاء مع العلماء، والاستماع إليهم خلال إقامتهم، والتي كانت غالباً ما تطول وهم في طريقهم إلى بيت الله الحرام، أو وصولاً إلى بغيتهم في التزود من العلم في شتى أصقاع العالم الإسلامي.

وبالجملة –وحسبما يفهم مما ورد، وتعلَّق بابن الأجدابي– فإنَّ الرجل كان عصامياً، اقتنص فرصة اللقاء بالعلماء المارّين ببلاده، واجتهد في الاستفادة ممَّا لديهم من علم، تدفعه همَّة عالية، ويقين صادق، وإيمان بحاجة البلاد التي يعيش بها إلى مثل ما قام به من عمل علمي، وما جوابه وردُّه على السائل الذي سأله ((من أين لك هذا العلم ولم تفارق طرابلس؟ فقال: أخذته

1– كفاية المتحفظ في اللغة، إبراهيم بن الأجدابي، تح: السائح على حسين، دار اقرأ، طرابلس، " د. ت" ص3–4.

2– التفكير اللغوي الدلالي عند علماء العربية المتقدمين، حمدان حسين محمد، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 2002م، ص171.

من بابي هوارة وزنَاتة))[1]، إلاَّ خير دليل على أنَّ الرجل كان واعياً للدور الذي يجب على العالم القيام به تجاه بني وطنه، ومن يشاركهم المثوى والمأوى.

6. الرسائل والمعاجم اللغوية:

6.1. أس النشأة:

شعر علماء اللغة في زمن مبكر، وتحديداً في حياة العالم اللغوي "أبي مالك عمرو بن كركرة". "ت 155هـ" الذي كتب عن "خلق الإنسان والخيل" بأهمية التأليف في المجال اللغوي، ومنذ ذلك الحين توالى تأليف الرسائل اللغوية، وتسابق علماء اللغة إلى الكتابة حول ما يعنى بتوضيح غريب الألفاظ، وجمع تلك الألفاظ اللغوية الغريبة، وتفسيرها كلٌّ حسبَ جهده وطاقته، فألفت الرسائل اللغوية عن: الإنسان، والنبات، والشجر، والإبل، والخيل، وعن كل ما تدعو إليه الحاجة، وفي كتاباتهم هذه قربوا المفاهيم، وحددوا الأقاليم، وكانوا في دراساتهم هذه موضوعيين وشموليين، فلم يقتصروا فيها على فن واحد؛ بل كانت موسوعات علمية، والمطلع على تلك الرسائل يجد ما يثير الإعجاب، ويبعث على الفخر.

وفوق هذا وذاك كانوا في تأليف رسائلهم اللغوية شديدي الاهتمام بالجزئيات، ((فتناولوا منها الخصائص التي تدقُّ، وأوصافها التي تختصُّ بها))[2].

واستمر الحال على هيئته في إنشاء الرسائل اللغوية، رغم ظهور معاجم الألفاظ، وظهور موسوعات لغوية تتعلق بالمعاني أو الموضوعات.

ولقد اختلف العلماء في تصنيف هذه الرسائل اللغوية، أَتعدُّ من المعاجم، أم أنَّها في حقيقتها إرهاص لظهور المعجم العربي؟ إلاّ أنَّه يمكن القول: إن الدرس اللغوي بدأ مبكراً، سواء عدَّت هذه الرسائل اللغوية بادرةَ المعجم العربي، أو أنَّه بدأ بعد نشأتها، أو أن ((هذه الرسائل الصغيرة أسهمت في وضع اللبنة الأولى للمعاجم العربية))[3]، أو أنها تختلف عن المعاجم في

1- التفكير اللغوي الدلالي عند علماء العربية المتقدمين، "مرجع سابق" ص8.

2- التفكير اللغوي الدلالي عند علماء العربية المتقدمين، "مرجع سابق" ص 13.

3- دلالات الألفاظ. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980م، ص228.

الهدف والمنهج. كل هذا وذاك –في نظري– لا يغيّر من الأمر شيئاً، فالدرس اللغوي العربي – بعامةٍ– آتى أُكلَه مبكراً.

ويمكن تلخيص المنهج العام لهذه الرسائل اللغوية بأنَّ ما ألف فيها من كتب، في منتصف القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث الهجري ((أغلبها لا تبويب فيها، أما التي ألفت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وما بعده، فيظهر عليها طابع الترتيب والتقسيم والتبويب))[1].

ومن الممكن أن أخلص إلى ما مفاده أنَّ الدرس اللغوي –وإن كانت بدايته على هيئة رسائل تختلف كمًّا وكيفاً– فإن الدرس المعجمي الموسوعي ظهر مبكراً على يدي "الخليل بن أحمد الفراهيدي" "ت 175هـ"، الذي أتحف الدرس اللغوي العربي بما لم يسبق إليه.

وقد اهتدى الخليل بن أحمد في جمعه لألفاظ اللغة العربية الفصحى إلى نظام لم يكن متبعاً، ولم يكن له وجود من قبل، وهو بالتحديد من بدأ عصر معاجم الألفاظ، وقد كان عملُهُ غايةً في جودة الترتيب، وإحسان التنظيم.

6.2. أنواع المعاجم اللغوية:

المعاجم العربية متنوعة، ومختلفة الأشكال والأغراض والمناهج، وليس في هذا البحث متسع لتفصيل الحديث عن طرق أو مناهج ترتيب الألفاظ في مختلف معاجم اللغة العربية قديمها وحديثها، فليس غرضي –كما سبق أن أشرت– عرض الحديث عن صناعة المعجم العربي، أو تقديم عمل نقدي، أو دراسة تاريخية عن المعاجم العربية؛ وإنما الغرض أولاً وأخيراً الإدلاء بما من شأنه إثراء الموضوع الذي بين أيدينا، والحديث عن المعجم العربي، لأنَّ محور هذا البحث هو في أساسه –حسب زعمي– عملٌ معجمي.

ومصطلح "معجم" عادةً ما يطلق على المعاجم الأحاديّة اللغة، لكن الكلمة قد تطلق ((على ما يسمى بالمعاجم الخاصة ذات المجال المحدود، فيقال: معجم مصطلحات، معجم مفردات، معجم ألفاظ القرآن الكريم... إلخ، كما تطلق على المعاجم الثنائية "أو المتعددة" اللغة،

1– معجم المعاجم العربية، يسري عبد الغني عبد الله، دار الجبل، بيروت، 1991م، ص45.

وهي المعاجم التي تختلف فيها لغة الشرح عن لغة المدخل، وتهتمُّ بتقديم المعلومات عن اللغة المشروحة أكثر مما تهتمُّ باللغة الشارحة ...))[1].

وعلى الجملة فعلماء اللغة العربية رتَّبوا معاجمهم إمَّا على اللفظ، وإمَّا على المعنى، وبهذا كانت المعاجم العربية نوعين:

أ. معاجم الألفاظ: وهي التي تفيدنا في بيان معنى لفظ من الألفاظ يصادفنا ولا نعرف معناه، وأكثر المعاجم العربية من هذا النوع، ((ممَّا يختص ببيان معنى الكلمة المعينة واشتقاقها، وما يتعلَّق بها))[2].

وفيما يتعلَّق بهذا النوع من المعاجم، فقد تعددت الطرق وتنوعت المناهج، فمن ترتيب صوتي إلى ألفبائي إلى أبجدي، وإن لم يستخدم العرب في ترتيب معاجمهم الترتيب الأبجدي.

ب. معاجم المعاني أو الموضوعات: وهي المعاجم ((التي تفيدنا في إيجاد لفظ لمعنى من المعاني يدور في أذهاننا ولا نعرف كيف نعبر عنه تعبيراً دقيقاً، ولا نعرف الكلمة المناسبة لهذا المعنى))[3].

وقد نال هذا النوع من التأليف اللغوي عناية كبيرة من علماء اللغة العربية، حتى إنَّهم كتبوا في كل شيء وعن كل شيء، ولم يتركوا شاردةً أو واردةً إلاَّ أحصوها عددا.

ومعاجم المعاني أو الموضوعات لا تختلف في منهجها العام، فهي متجانسة، لا تختلف كثيراً من حيث الترتيب والتبويب والتقسيم، وليس هناك من خلاف بينها إلاَّ ((في قلة توزيع المفردات وكثرتها، والالتفات اللغوي؛ لأنَّ لكلٍّ منها فنا ربما يتفق أو يختلف))[4].

وفي هذا المقام ليس من الضروري الوقوف عند الزمن الذي ظهرت فيه هذه المعاجم، أكان ذلك عقب ظهور الرسائل اللغوية أو متزامنة معها؟ إلاَّ أنَّ ما يمكن فهمه هو ((أنَّ فريقاً

1- البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر "مرجع سابق"، ص163.

2- الأساس في فقه اللغة العربية وأرومتها. هادي نهر، "مرجع سابق"، ص174.

3- السابق.

4- التفكير اللغوي الدلالي، حمدان حسين محمد، "مرجع سابق"، ص162.

من علماء العربية الأوائل وجدوا أنفسهم أمام بحر خضمّ من المفردات اللغوية في شكل رسائل صغيرة، فجمعوا هذه الرسائل بحسب مدلولاتها في تنظيم وترتيب أكثر دقة، في مرحلة جديدة متطورة، ممَّا كانت عليه تلك الرسائل، وسميت فيما بعد: معاجم الموضوعات))[1].

وقد تعددت معاجم المعاني هذه، وأشهرها: "الغريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام "ت 224هـ"، و"الألفاظ الكتابية" لعبد الرحمن بن عيسى الهمداني "ت 320هـ"، و"مبادئ اللغة" لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الإسكافي "ت 420هـ"، و"فقه اللغة" لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري "ت 429هـ"، و"كفاية المتحفظ في اللغة" لأبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله اللواتي ابن الأجدابي الإفريقي" "ت 470هـ".

وهذه المعاجم لم تكتمل صورتها وتأخذ الشكل العلمي ((إلا على يدي رجلين من أجلِّ علماء اللغة بالأندلس وهما: أبو القاسم أحمد بن أبان "ت 382هـ"، وأبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيِّد المرسي "ت 458هـ"))[2].

وهذا النوع من معاجم اللغة العربية لا يهتم فيه بذكر اللفظ واشتقاقاته، وما يتعلَّق بها من معان وأوجه استعمالاتها، شأن معاجم الألفاظ؛ وإنَّما تختص بإيراد المعنى، وتذكر الألفاظ التي يعبر بها العرب عادة عنه، وهذه المعاجم تمتاز بتنوع أبوابها، وأنَّ كل باب يختصّ بمعنى من المعاني أو الموضوعات.

والظاهر أنَّ مؤلفي معاجم المعاني لم يظفروا إلاَّ بطريقة واحدة، وإن اختلفوا، فاختلافهم انحصر في الكمِّ، وفي استيفاء المعلومة، وتبيانها. ((وما أظنُّهم كانوا سيكتفون بهذه الطريقة الواحدة لو أمكن عقلاً الاهتداء إلى طريقة أخرى))[3].

1- فصول في فقه اللغة العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1987م، ص258.

2- المعجم العربي، عبد العلي الودغيري، مكتبة المعارف، الرباط، 1984م، ص72.

3- البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، "مرجع سابق" ص175.

7. في محراب "كفاية المتحفظ":

أدرك ابن الأجدابي ما أراده، وجاء كتابه غايةً في الاختصار غير المخلِّ، واقتصر على المهم، وقصد إلى أن يكون عمله مختصراً، ليتمكن الكثير من حفظه عن ظهر قلب، وقد تحقَّق له ما أراد، وذاع صيت الكتاب ووصل إلى كل أصقاع الناطقين بالعربية، ((وإن كان ابن الأجدابي قد لزم طرابلس، ولم يفارقها طوال حياته؛ فإن كتابه قد شرَّق وغرَّب في العالم الإسلامي، كما احتل مكانه في مكتبات العالم ومتاحف المخطوطات، ممَّا يؤكد اهتمام الناس به على مرِّ العصور))[1]، وذلك راجع إلى المستوى اللغوي، الذي عومل به اللفظ المراد إيضاحه؛ فامتلاك زمام اللغة أصل التعامل، وابن الأجدابي امتلك زمام لغته، وأدرك الحاجة إلى مثل ما به كانت عنايته، وبهذا كان التوافق والاتفاق بين الغاية والحاجة.

وابن الأجدابي في كل أبواب كتابه حرص على تأكيد أصل الوضع للألفاظ التي اختارها، وإن استعملت في غير ما وضعت له عن طريق التحول المجازي في الاستعمال، حيث يُنسَى أصل الوضع ويصبح اللفظ شائعاً في غير ما وضع له، وهو أمر معروف يعززه الكلام ذاته، ويحدِّد مسارَه الاستعمالُ، وهو ليس تحولاً دلالياً تتمّ فيه استعارة اللفظ في أصل ما وضع له لمصلحة دلالة جديدة، مع وجود علاقة بين السابق واللاحق. فعلى سبيل المثال –وعند ذكره لصفات المرأة المستحسنة– أكد –إلى جانب ذكر الدلالة وما تشي به الصفات– على الاستشهاد بالفصيح المستعمل.

* الخوْدُ: المرأة الحسنة الخَلق.

قال خُداش بن زُهير:

وإذ هي خوْد كالوديلة بادن ∴ أسِيلةُ ما يبدو من الجيب والنحر.

* الغادة: الناعمة.

1– كفاية المتحفظ في اللغة، "مرجع سابق"، ص7.

قال الحطيئة:

وأغْيدُ لا نكِس ولا واهن القِوى ∴ سقيت إذ أولى العصافير صُرَد.

* المِمْكورة: المطوية الخَلْق.

* الخَدَلجةُ: الممتلئة الذراعين والساقين.

وقال يزيد بن معاوية:

خَدَلجةُ الساق ممكورة ∴ سلوس الوشاح كمثل البقر[1].

وقد كان هذا ديدنَه في كل أبوابه، وفي كل ما تعرض له من أوصاف؛ وبه استطاع أن يُحكم عُرى الألفاظ التي اختارها، ونأى عن تحميلها ما لا يتناسب مع أصل ما وضعت له وتُعورف عليه. وفيما ذكره من ألفاظ، تحقق قول أبي حامد الغزالي، في معرض حديثه عن معيار تحول الدلالة، حيث قال: ((والمعيار في تحول الدلالة هو الاستعمال، والحكم الفاصل بين دلالة الوضع الأول ودلالة الوضع الطارئ لا يفرزه إلاَّ الكلام ذاته، بحيث يصير المصطلح شائعاً في غير ما وُضع له، فيصير أصل الوضع منسياً والمجاز معروف سابقاً إلى الفهم بعرف الاستعمال))[2].

وابن الأجدابي في "كفاية المتحفظ في اللغة" راعى أصول قاعدة التَّحول الدلالي، أيكمن المرجع في التحول إلى الاستعمال مطلقاً، أم إلى الاستعمال المقنن، الذي لا يتيح لأيّ باحث أن ينقل لفظاً من معناه الأصلي إلى معنى جديد يريده، دون النظر إلى قواعد المصطلح العلمي، وهذا ممَّا ينتج عنه إشكالية حقيقية، تتجسد في تناول المصطلحات وتقديمها دون وعي وفهم، ممَّا يوقع في "اللفظية اللُّغوية" ((ولذلك كانت محاولة الدخول من خلال المصطلح إلى

1- كفاية المتحفظ، "مرجع سابق" ص59.

2- المستصفي في علم الأصول، أبو حامد الغزالي، صححه: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان، 2000م، ص146.

الثقافة تتجلى خطورتها فيما يمكن أن يحدثه المصطلح من بلبلة فكرية وخلط في المفاهيم واهتزاز في الشخصية واضطراب في الثقافة وتبديل للقيم الضابطة لمسيرة الأمة))[1].

وقد اهتم –إجمالاً– بالتطبيق اللغوي، خاصة التطبيق الدلالي، وكان حريصاً أن يكون علميا في منهجه الداعي إلى التيسير، وتسهيل الحصول على المادة العلمية.

7.1. الندرة والغرابة:

ابن الأجدابي في ترتيب معجمه لم يكن بدعاً، فقد اعتمد على من سبقه من العلماء، وممَّن كانت لهم قدم راسخة في مضمار العمل المعجمي، وهناك رسائل كثيرة ألفت في المعجم اللغوي، منها ما اختص بخلق الإنسان، والتي أحصي منها ما يفوق الأربعين كتاباً[2].

ولم يكتف علماء العربية بالكتابة عن خَلق الإنسان، فقد كتب قطرب "ت 206هـ" عن خلق الخيل، وكتب معمر بن المثنى "ت 210هـ" عن العقارب، وكتب أبو عبيدة "ت 210هـ" عن الحمام، وكتب الأصمعي "ت 216هـ" عن الإبل والخيل والشاء والوحوش، وكتب ابن السكيت "ت 244هـ" عن الحشرات، وكتب الهروي "ت 255هـ" عن الحيات.

ومن غير الغريب وجود بعض الخلط في معجم ابن الأجدابي، "كفاية المتحفظ في اللغة"، وذلك في بعض ما عنون له، فقد ذكر عنوانا باسم الآنية، وفي آخره قال: ((ثم الشيزى شجر تعمل منه الجفان))[3].

1– المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية، محمد شبار، سلسلة كتاب الأمة، 2000، السنة: 20، ع: 78، ص30.

2– معجم المعاجم، تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية، أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص23–36.

3– كفاية المتحفظ في اللغة، "مرجع سابق"، ص23.

وعند عقده فصلاً خاصاً بالزهر، لم يتعرَّض فيه إلاَّ إلى تسمية الزهر إذا اصفرَّ وقارب النضج، وذكر لفظ العروة وهو الشجر الذي لا يسقط ورقه في الشتاء، وكان حقَّه أن يذكر تحت عنوان باب الشجر[1].

وهذه وإن عدت مجانبة في التنسيق فإنها من الهنات الخفيفة التي لا يخلو منها عادة عمل علمي، فقد وجد هذا في كتابات من سبقه من أعلام هذا الفن، فهذا أبو زيد الأنصاري "ت 215هـ" في معجمه "النوادر في اللغة" الذي احتوى أبواباً متعددة وعناوين كثيرة، نجده أبدى وأعاد؛ انظر مثلاً: تعاقب الأبواب عنده، دون تنسيق أو تبويب، فقد يأتي باب شعر، ثم يأتي باب رجز، وقد يأتي باب شعر، فباب نوادر، أو باب رجز فباب رجز مثله.

وقد جاء كتاب "كفاية المتحفظ في اللغة" على غرار ما ألف من معاجم الموضوعات، أو معاجم المعاني، حيث ترتب هذه المعاجم حسب موضوعاتها، وليس على حسب المخارج، أو الحروف الهجائية، وإنما على حسب تشابه الموضوعات، أو المعاني وتصاقبها.

وابن الأجدابي في كتابه هذا لم يعتمد "المادة" أصلاً ينطلق منه، واكتفى بوضع عناوين، ينضوي تحت لوائها جمعٌ من الألفاظ يجمعها حقل دلالي واحد، وهو لم يخالف هذا النهج إلاَّ نادراً، كما سبق وأن أشرت.

وعليه يمكن القول: إنَّ هذا الكتاب يصنَّف مع "معاجم الموضوعات" تماشياً مع ما كان سائداً في التأليف المعجمي، ومن الممكن أيضاً أن نطلق عليه: "معجم تعريفات"، إشارة إلى ما يقدمه من معلومات حول موضوعات مختارة، وإذا صحَّت هذه التسمية، وعد "كتاب كفاية المتحفظ في اللغة" معجماً من معاجم المعاني، أو الموضوعات، فهل تحقَّق فيه أولاً الشرطان الأساسيان، اللذان يجب أن يتحققا في كلِّ عمل معجمي، وهما: الشمول والترتيب؟ وهل قدم فيه ما يستحق تقديمه من معلومات، حول المواد التي جمعها؟

1- كفاية المتحفظ في اللغة، "مرجع سابق"، ص203.

عند الاطلاع على ما احتواه الكتاب المحقق، وعرض مادته على المقاييس المعجمية، تبيَّن التالي:

- إنَّ المعجم –بطبيعة تأليفه، الذي قصد به أن يكون مختصراً، من أجل أن يسهل حفظه– لم يكن شاملاً، لكل الموضوعات، غير أن شموله لما عنون له يمكن أن يكون حاضراً.
- فيما يتعلق بالترتيب فقد وفق ابن الاجدابي فيما قصد إليه، ورتب المعاني بطريقة متتالية، الأول فالأول، وهو عمل يحمد له.
- كل ما في "كفاية المتحفظ في اللغة" يمثّل حقبةً زمنيةً معينةً، ويصف بيئةً عربيةً مخصصةً، فالكتاب ليس كتاباً عاماً، وإنما كان كتاباً خاصاً ألف لغرض خاص.
- من خلال تصفّح الكتاب يظهر جليّاً أنَّ مؤلفه كان يهدف إلى خدمة اللغة العربية، وذلك من خلال تقريب المعاني، ووضعها تحت عناوين ملائمة، تتوافق وتتصاقب معها.
- على الرغم من وفرة معاجم الألفاظ، واشتهار الكثير منها، وجدنا أنَّ ابن الأجدابي قد اختار أن ينحو نحو الكتابة عن الموضوعات اللغوية والمعاني المختلفة.
- لم يشر ابن الأجدابي في كفايته إلى المصادر التي أخذ عنها مادته العلمية، ويظهر أنَّه استقاها مما طالته يداه من مصادر مختلفة.
- يظهر جليّاً الحاجة الماسة إلى معرفة الكثير عن الجزيرة العربية، موطن اللغة العربية الأول، وكذلك مدى التقدير الذي يُكِنُّه العلماء لهذه الأرض.
- الترابط واللحمة بين أجزاء الوطن الواحد، فالطرابلسي وهو مقيم في بلاده –يعني نفسه– يكتب عن نبات وجغرافية الجزيرة العربية... وغيرها.
- في كثير ممَّا ورد في "كتاب كفاية المتحفظ في اللغة" وجدنا ابن الأجدابي قد اقتفى أثر أبي هلال العسكري في الفروق، فهو وإن لم يصرّح بما من شأنه إنكار الترادف في اللغة، فإن غالب ما ذكر في أبواب كتابه، يدل دلالة صريحة أنَّه يرى أنَّ لكل لفظ دلالة خاصة، وأنَّ ما عُدَّ أسماءً لا يعدو أن يكون أوصافاً لمسميات.

- كثر في معجمه التفسير بالمصاحبة، وهو: ما يصحب الكلمة من كلمات هي جزء من معناها الأساسي. نجده مثلاً: يفسر "الجباب" بقوله: ((شيء يجتمع فوق لبن الإبل خاصة، فيصير كأنه زبد. وليس للبن الإبل زبد))[1].
- إجمالاً، فإنَّ "كفاية المتحفظ في اللغة" جاء مثالاً شاهداً لحرص علماء اللغة العربية على الكتابة الهادفة، التي تخدم وتربط الناشئة بتراثهم، وتعينهم على فهم لغتهم، حتى يتسنى لهم إدراك معاني الكتاب العزيز، والسنَّة المشرَّفة.
- أستطيع الحكم دونما تردّد بأنَّ "كتاب كفاية المتحفظ في اللغة" جاء أنموذجاً صحيحاً، وتطبيقاً صائباً لما يسمَّى معجم الموضوعات، أو المعاني، وهو ما يُعدُّ فرعاً من فروع علم اللغة التطبيقي.
- على الرغم من تطاول الزمن على تأليف هذا الكتاب، فهو لا يزال منبعاً ثرّاً، ومصدراً معلوماتياً رائداً، بخاصة بعد أن تمَّ تحقيقه بالصورة التي عليها الآن.

8. الخاتمة:

حاولت من خلال ما قدَّمت من معلومات في هذا البحث، أن أجمع كمّاً ممَّا تميزت به حقبة من حقب العطاء المعرفي المشرف للغة العربية، تلك اللغة التي شرفها الله بأن تكون لغة الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد اخترت أن يكون حديثي عن جانب من جوانب المعرفة العلمية، التي حازتها شخصية العالم اللغوي "إبراهيم بن الأجدابي الطرابلسي"، وبالتحديد عن جانب التطبيق اللغوي في كتابه الموسوم "كتاب كفاية المتحفظ في اللغة"، الكتاب الذي جاء نموذجاً للمعجم الموضوعي، الذي تم فيه ذكر موضوعات معينة، وما يمتُّ إليها بصلة.

1- كفاية المتحفظ في اللغة، "مرجع سابق"، ص219.

وقد اقتضاني البحث في هذا المنحى أن أمهِّد بالحديث عن ظاهرة الرسائل اللغوية، مروراً بظهور المعاجم وتنوعها، وصولاً إلى الغاية التي من أجلها كان هذا العمل، وهو عدُّ "كتاب كفاية المتحفظ في اللغة" رسالةً أو معجماً من معاجم المعاني أو الموضوعات.

وقد كان من المهم الإشارة إلى قيمة الكتاب قيد الدرس، وإلى معرفة ما أحاط بصاحبه، غير أن شُحَّ ما يتعلق بالمؤلف أعاقتني –كما أعاقت غيري– عن تقديم ما من شأنه شفاء الغليل، فمثلاً لم تسعفنا المراجع بما من شأنه أن يشير إلى معلميه أو تلاميذه، أو إلى كثير ممَّا ألمَّ بشخصيته، ومن هنا فقد اكتفيت بما ذكر غيري، وكذلك الأمر فيما يتعلَّق بالنسخ المخطوطة للكتاب قيد الدرس، فلم أشأ الإشارة إليها، واكتفيت بإحدى النسخ المحققة، وممَّا توفَّر فيها من مادة حاولت إيضاح معالم الدرس اللغوي التطبيقي، الذي يعد الدرس المعجمي من بين أبرز أفرعه، وهنا كانت الوقفة المرادة من العمل برمته، فهل كان عمل ابن الأجدابي في كفايته عملاً معجمياً، ومعجمياً موضوعياً بالتحديد.

وممَّا تجدر الإشارة إليه هو أنني في هذا البحث تعمدت تجنب الجرح والتعديل، واكتفيت بالإشارة إلى ما توافر عليه العمل قيد الدرس، محاولاً الإسهام في نشر الثقافة بين أبناء البلد، حريصاً على إحياء الدور الريادي الذي قام به أحد رواد الكلمة في هذه الأرض الطيبة.

وعلى الرغم من صعوبة العمل المعجمي ودقته، والمعاناة في تتبع الألفاظ في مظانِّها، فقد وجدنا الجمع الغفير من علماء العربية الذين آلوا على أنفسهم الإسهام في حفظ تراث هذه اللغة، وتتبعوا شواردها، وقيدوا أوابدها في دواوين، أراد الله أن تبقى دليلاً على عظم أولئك العلماء الذين تفانوا في خدمة لغتهم، وهم من الكثرة بمكان، حتى يستحيل الإحاطة بأسماء أعمالهم، ناهيك بالغوص في تلك الأعمال.

وابن الأجدابي –وإن لم يغادر مسقط الرأس، ولم يتجشَّم ويعان مرارة الغربة، وشظف العيش، وفراق الأحبة– بذل قصارى الجهد في أن يستعيض عن جميع ذلك بالحرص والمثابرة في القول والعمل، وبذلك صحَّ له أن يكون مثلاً يحتذى به في الحرص على أخذ العلم كلَّما سنحت بارقة.

وعلى الرغم من أنَّ ديدن طلاب العلم الهجرة والاغتراب، والسفر إلى الحواضر، بعدت أو قربت، فالذي كان مع ابن الأجدابي يدلُّ في حقيقته على أنَّ طرابلس كانت حاضرةً من حواضر العلم، وقبلة لطلابه، وهذا ليس بمستغرب، فعبد القاهر الجرجاني، وعلى عظيم ما نال من شهرة، لم يصلنا أنَّه غادر جرجان مسقط رأسه.

المصادر والمراجع:

1- الأساس في فقه اللغة العربية وأرومتها. هادي نهر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان – الأردن، 2002م.

2- الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، "د. ت"

3- البحث اللغوي عند العرب. أحمد مختار عمر. عالم الكتب. القاهرة. 1988م.

4- التطور اللغوي التاريخي، إبراهيم السامرائي، دار الأندلس، بيروت، 1981م.

5- التفكير اللغوي الدلالي عند علماء العربية المتقدمين، حمدان حسين محمد، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 2002م.

6- المستصفي في علم الأصول، أبو حامد الغزالي، صححه: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2000م.

7- المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية. محمد شبار، سلسلة كتاب الأمة، 2000م. السنة: 20، ع: 78.

8- المعجم العربي، عبد العلي الودغيري، مكتبة المعارف، الرباط، 1984م.

9- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود شاكر، ط: 3. مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1992م.

10- دلالات الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، 1980م.

11- فصول في فقه اللغة العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1987م.

12- كفاية المتحفظ في اللغة، ابن الأجدابي، تحقيق: السائح على حسين، دار اقرأ، طرابلس، "د. ت"

13- علم اللغة التطبيقي في التراث العربي، الجاحظ نموذجا، جاسم على جاسم، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: 40، ع: 2، 2013م.

14- معجم المعاجم العربية، يسري عبد الغني عبد الله، دار الجبل، بيروت، 1991م.

15- معجم المعاجم "تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية"، أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.

مؤتمرات:

1- ظاهرة اللفظية في اللغة العربية، محمد امحمد بن طاهر، المؤتمر الثاني للترجمة عبر الثقافات، أكاديمية الدراسات العليا، بنغازي – ليبيا، 2006م.